

الدولة المدنية

تجربة فؤاد شهاب في لبنان

ندى حسن فياض

الاستنتاج العام

إن طرح عنوان الرسالة «تجربة فؤاد شهاب في بناء الدولة المدنية في لبنان» حثم عليّ التركيز في سياق البحث على انجازات الرئيس فؤاد شهاب الفردية، والتي كنت قد اعتبرت، إنها الطاغية على مسار عهده الرئاسي، وعلى مقولة النهج الشهابي الذي أطلق في حينه.

خلال قراءاتي المتتالية، ومتابعة عملي البحثي، رصدت اعمال حكومات متتالية، ترأس اطول فترة فيها، الرئيس رشيد كرامي، الذي شكل دعامة اساسية، في الشارع السني، لتنفيذ توجهات الرئيس شهاب، بما يشبه ولو بقليل الثنائي، بشاره الخوري ورياض الصلح.

راقبت عمل ثلاثة مجالس نيابية، رافقت عهد الرئيس فؤاد شهاب، اولها المنتخب ايام الرئيس كميل شمعون في العام 1957، والثاني ذات الاكثريّة الشهابية والمنتخب وفق قانون 1960؛ والثالث، المنتخب في العام 1964، الذي ادى الى اسقاط ألد اعداء الرئيس شهاب الموارنة، وهما: ريمون اده وكميل شمعون.

توصلت الى قناعة، ان كل من اعضاء السلطة التنفيذية، او السلطة التشريعية، عمل في مدار خاص به، لتحقيق غاياته السياسية، من خلال الاستفادة قدر الامكان من النهج الشهابي. فرشيد كرامي تكرس زعيماً سنياً آتياً من طرابلس، بوجه زعامات بيروت الصلحية والسلامية، لم يبتعد كثيراً عن النهج الشهابي بعد إبتعاد الرئيس فؤاد شهاب عن السلطة، لكنه لم يستطع تطبيق اي من شعاراته، او تنفيذ اي من برامجه الاصلاحية. بيار الجميل تزعم الشارع الماروني، من خلال السلطة والحذوة التي أحبط بها طيلة العهد الشهابي امام انصاره وطائفته، ولكنه لم يتورع عن محاربة هذا النهج وشخص رئيسه، حين تأكد ان مصالحه لم تعد تتطابق معه، مكرساً ذلك بالاشتراك في الحلف الثلاثي، مع اده وشمعون، ضد الشهابية. أما كمال جنبلاط، فقد حافظ على ثباته موقفه داعماً للرئيس شهاب طيلة عهده، مبرراً امام انصاره، ان ولاءه للعهد يعود الى انسجام برامج الرئيس شهاب الاصلاحية مع برامج حزبه واشتراكيته، لكنه لم يتردد بالتخلي عن الشهابية وشهاب، حينما لاحت في الافق، تطورات عربية جديدة، من وفاة عبد الناصر، الى ظهور منظمة التحرير الفلسطينية، وغيرها، ولم يعمل على دعم عودة الرئيس شهاب، ولا مرشحه الى الحكم، في العام 1970.

استشهدتُ بهذه الامثلة لابرز اقطاب داعمي الشهابية، لاقول ان التجربة التي طرحها الرئيس فؤاد شهاب كانت مرحلية، تُساعد جميع انصاره على تحقيق بنودها، ولكنهم لم يتبنوها خطة اصلاحية دائمة، لوطن احتاج اكثر من ستة اعوام للتخطيط والتنفيذ في آن معاً.

إن تجربة فؤاد شهاب، كانت فردية، وبرامجه انتهت مع نهاية ولايته الرئاسية، اللهم الا ما بقي منها حكماً من مؤسسات كانت قد انطلقت بعملها وأثبتت ضرورة وجودها، وبقيت رمزاً لوجود الدولة ومؤسساتها، خلال اقسى فترات حرب لبنان، مثل مؤسسة الجيش، مجلس الخدمة المدنية، التقطيش المركزي، والمصرف المركزي، وغيرها...

أما بالنسبة لإشكالية الموضوع الذي طرحت، «إن إنصهار اللبنانيين في ولاء واحد مشترك لوطنهم وفي نظرتهم الى مصيرهم ومصير وطنهم ونظامه، يتطلب تجرداً من الولاءات الطائفية والمذهبية وتحقيق الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والانماء المتوازن بين كل المناطق والمواطنين وذلك عن طريق إقامة دولة المؤسسات المدنية البعيدة عن الطائفية السياسية. فهل كان بإمكان الشهابية وضع المجتمع اللبناني الطائفي على طريق الانصهار الوطني؟» فإنني اوضح، ان الرئيس فؤاد شهاب، كان واضح الرؤية وصادق المبادئ، مقتنعاً ان الغاء الطائفية السياسية في لبنان ليس عملاً ثورياً وقمعيّاً، عاملاً ببطءٍ ولكن بثبات على تحقيق الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، والانماء المتوازن بين المناطق وداخل الواقع الطائفي؛ أملاً بنقل ولاء المواطن، بعد تأمين حقوقه الاساسية الى دولته، المبنية على المؤسسات المدنية، التي تؤمن تلك الحقوق دون منة، بل وفق الحاجة والحق والكفاءة. إعتبر الرئيس شهاب، ان الجيش مدرسة في الوطنية: فهو المؤسسة التي لا دين لها، مؤسسة تظهر كمثال للوحدة الوطنية، وقناة عبور للافكار الوطنية حتى تصل الى المجتمعات المنغلقة على نفسها؛ إنطلق منه بعد بنائه وتنظيمه، طيلة فترة قيادته له، وجعله حامياً للديموقراطية، عاملاً من خلاله على بناء الوحدة الوطنية، وخلق مفهوم الامة.

شعر الرئيس شهاب بفقدان الحس الوطني لدى اللبنانيين، فحاول بناء هذا الحس من خلال كتاب التنشئة الوطنية الانسانية، ومن خلال عمله على بناء الثقة الواعية بين المواطن والدولة، كما من خلال تثبيت الوحدة الوطنية.

لقد طرحت في مقدمة الرسالة فرضيات عدة، اولها «محاولة الرئيس فؤاد شهاب من خلال اصلاحاته رفع الحرمان عن المواطنين بغض النظر عن الطائفة والمنطقة». إنني اجد في هذا المجال الرئيس صادقاً، لانه إستند في اصلاحاته على خطط رسمها بناء لتقارير إستنفذت الجهود الكبيرة لصياغتها على يد اختصاصيين كفوئين، وإستفادت من مضامينها مناطق بقيت مغلقة على مرّ عهدين رئاسيين سبقا عهده، وإستفادت منها الطوائف الفاطنة فيها، وإن تكن باكثريتها مسلمة، نظراً لوجودها في تلك المناطق، كما استفادت منها الفئات المسيحية المهمشة آنذاك.

قامت الفرضية الثانية على «عمل الشهابية على بناء طائفية عادلة من خلال مشاركة جميع اللبنانيين» وهو ما أتى نتيجة لتفهم الرئيس شهاب لعقدة الغبن عند المسلمين، والتي عالجها بتأن ووعي من خلال تطبيق مبدأ 6 و6 مكرر في الوظائف الادارية والعسكرية، وباعطاء دور اساسي لرئيس الحكومة السني، رداً على مقولة صلاحيات رئيس الجمهورية المطلقة. محاولاً بناء طائفية عادلة من خلال تنظيم الطوائف لاحوالها الشخصية، واستصدار القوانين والمراسيم الضرورية.

وعمل في المقابل على تثبيت الفرضية الثالثة، والتي تقول «ان الشهابية حاولت الغاء دور الطائفة كوسيط بين المواطن والدولة»، وذلك من خلال إنشاء المؤسسات المدنية، لكي تكون هي الوسيط لدخول المواطن الى مؤسسات الدولة، والى بناء شعور المواطنة لديه، وتكريس انتمائه الوطني.

اما موضوع الفرضية الرابعة وهو: «ان الشهابية عملت من خلال التنمية على تحقيق الولاء الوطني»، فحاول الرئيس شهاب تحقيقها عبر برامج الانماء المتوازن في مختلف المناطق، واطهرت الجداول الاحصائية التي رافقت بحثي، ان معظم هذه البرامج نُفذت في المناطق المحتاجة اليها وبشكل متوازن بينها، محاولة تحقيق الولاء الوطني لدولة المؤسسات، وليس لشخص رئيسها، الذي رفض البقاء او العودة الى مركزه حين سنحت له الفرصة بذلك.

واما الفرضية الاخيرة والتي تدور حول «ايمان فؤاد شهاب بالتطور EVOLUTION وبعده كل البعد عن مفاهيم الثورة REVOLUTION»، فظهر هذا الايمان جلياً من خلال مرأهنة الرئيس على عامل الزمن للحصول على التطور، ورفضه قطعاً مفاهيم ثورية لفرض اسقاطاتٍ فوقية على المجتمع اللبناني لا يستطيع هضمها. فهل نسي ان ستة اعوام غير كافية لتحقيق ذلك، ام انه راهن على الخلف لاتمامها.

وبالعودة الى العنوان الذي طرحت، وهو التجربة في بناء الدولة المدنية، اجد ان جميع الاسس التي بنى عليها الرئيس شهاب دولته، تتطابق مع اسس الدولة المدنية، من خلال تطبيقه الديموقراطية، واحترام استقلالية السلطات الثلاث، وجعل الشعب مصدر التشريع الاول، واحترام الدستور الذي اقره هذا الشعب؛ كما عمل الرئيس شهاب على تثقيف المواطن، كي يتمكن من ممارسة سلطته على افضل وجه.

ولكن اجد ان تجربة بناء الدولة المدنية قد تعثرت، نظراً لقصر زمن العهد الشهابي، بالنسبة لضخامة المشروع المطروح للتنفيذ، ونظراً لتخلي الرئيس شارل الحلو عن متابعة تنفيذ برامج اصلاح الشهابية، ووقوف الرئيس سليمان فرنجية كندٍ ومحاسب لهذا العهد. تعثرت هذه التجربة، نظراً لتخلي الكثيرين من اركان الشهابية عن مبادئها التي لم يتبنوها اصلاً الا لتنفيذ مصالحهم، ومن بقي وفيّاً لها إستترت خوفاً من اساليب الاضطهاد التي كانت تطل كل رموز الشهابية في ما بعد. تعثرت التجربة نظراً لبقائها فردية، وعدم تشكيل حزب سياسي يتبنى مبادئها، عاملاً "على ترسيخها في نسيج الحياة السياسية اللبنانية.

ولكن من الجدير قول، وكما اشار سليمان تقي الدين اننا «اذا كنا نستعيد الشهابية كمصدر تاريخي للالهام، فانها حقيقة استطاعت ان تنجز في الممارسة حداً معيناً في بناء الدولة الحديثة والادارة النزيهة والفاعلة، ومما يعني ان الافق مفتوح اذا ما توافرت الارادة وتوافرت الرجال الذين هم من طينة فؤاد شهاب، مشبعين وطينةً وصدقاً واخلاصاً لفكرة الوطن والدولة»¹.

¹ سليمان تقي الدين، "الرئيس فؤاد شهاب"، فؤاد شهاب باني دولة الاستقلال شهدات، مؤسسة فؤاد شهاب، دون ذكر للطبعة، بيروت، 2005، ص100.